بيروت الجميلة بالريشة المائية

سهيل منيمنة

مؤسس/رئيس جمعية «تراثنا بيروت»

بعد أيام من وصوله إلى بيروت في ٦ أيلول ١٨٣٢، غادر الشاعر الفرنسي لامارتين (١٧٩٠–١٨٦٩) مكان إقامته المؤقت في حي مار مارون، وارتقى تلة مار متر على أحد مرتفعات منطقة الأشرفية. تأمل المدينة طويلاً، ثم أخرج قلمه ومدوّنته وكتب: «طالما تخيّلتُ في طفولتي الجنّة الأرضيّة، جنّة عدن التي تختزنها الأمم في ذاكرتها، إما حلمًا جميلاً، أو ناموسًا لزمان ومكان في غاية الكمال. تتبَّعت خطى ميلتون (john Milton) في وصفه المبهج سحرَ مكان إقامة أجدادنا الأوائل. غير أن الطبيعة هنا، كما في كل شيء، تفوق الخيال. لم يمنح الله الإنسان القدرة على الحلم بهذا الشكل الجميل الذي صنعه. حلمتُ بجنّة عدن، ويمكنني القول إنني رأيتها [يقصد بيروت]». (رحلة إلى الشرق ١٨٣٢–١٨٣٣، صفحة ٥٤ .Voyage en Orient 1832–1833 p 54. Paris)



منظر لبيروت من تلة مار متر في عشرينيات القرن الماضي

لامرتين بالريشة

بعد سبع سنوات قام دبلوماسي بلجيكي فنانٌ هاوٍ وعالم نبات يدعى بنجامين ماري Benjamin Mary (١٧٩٢–١٨٤٦) فنقل باللون كلمات لامارتين الشاعرية في لوحة مائية بانورامية مذهلة في كانون الثاني ١٨٣٩.

ولد سنة ١٧٩٢ في مدينة مونس البلجيكية ودرس القانون في جامعة بروكسل. بعد مسيرة مهنية قصيرة في السياسة الداخلية، عُيِّنَ في تموز ١٨٣٢ أول قائم بالأعمال لدولته إلى البرازيل، فأقام في ريو دي جانيرو خمس سنوات، وقَّع خلالها باسم بلجيكا على معاهدة تجارية أبرمتْها البرازيل مع هولندا سنة ١٨٢٨، ونال استحسان الملك ليوبولد الأول وتنويهًا من الحكومة البرازيلية. وخارج أنشطته المهنية كان يضع رسومًا خاصة بالنباتات. وبعض رسومه محفوظة في مؤسسات عامة بين البرازيل وأوروبا.

سنة ١٨٣٩ تم ترشيحه أول سفير لبلجيكا في اليونان. وبين ١٨٣٩ و١٨٤٥ سافر ورسم في اليونان وألمانيا والجزر الأيونية وسوريا وليبيا وتركيا ومصر والبرتغال وإسبانيا. خلال تلك الفترة، وضع مجموعةً بعنوان «Voyage en Grèce et en Orient fait dans les années 1839 à 1845» يضم ٢١ مشهدًا بانوراميًا، ١١ منها بالقلم الرصاص، و٤ بالبنِّي الداكن و٦ ألوان مائية بينها صورتان بانوراميتان لبيروت، عرضهما متحف نابو (الهري، شمال لبنان) في معرض «بيروت ١٨٤٠–١٩١٨: صور وخرائط».

المائيتان

وضع ماري تينك المائيتين البانوراميتين في كانون الثاني ١٨٣٩ (سنة ولادة التصوير الفوتوغرافي) وفيهما تفاصيل دقيقة لمبانٍ رئيسة تحيط بها الحدائق والبساتين الجميلة. وأكتفي في هذا النص بقراءة المائية الكبرى.

في قراءة اللوحة من اليسار إلى اليمين يبدو برج الشامية سنتينا ثم برج القلعة البحرية ثم برج تتكز (الشهير آنذاك ببرج البعلبكية) ويبدو جزء من برج المصلّى. كما تبدو مئذنة جامع الأمير منذر خلف قيسارية الصاغة، وبجانبها مباني محلة الشيخ رسلان ومئذنة الجامع العمري الكبير، فسراي الأمير منصور عساف وباب السراي وجامع السراي (وهو جامع الأمير عساف).



باب السرايا عام ١٨٩٩ للألماني أوبنهايم

وتبدو في اللوحة مزارع منطقة الصيفي: برج أبو هدير (وهو غير برج أبو حيدر في منطقة المصيطبة)، وفي الوسط تبدو المباني المطلة على ساحة البرج (معظمها خانات ومقاهٍ) وصولاً إلى برج الكشاف الشهير، ثم محلة القيراط (ساحة الدباس لاحقًا) وفيها برج زخور وبرج الأمير أسعد الشهابي (لاحقًا برج ناصيف فياض) فخان الكنفاني. وإلى شرق برج الكشاف تبدو مباني «درب النهر» (الجميزة ومحيطها) وفي الأعلى مزارع وبيوت منطقة الأشرفية.

على سبيل ماء في ساحة بيروتية للفرنسي آلوا بير سنة ١٨٨٩

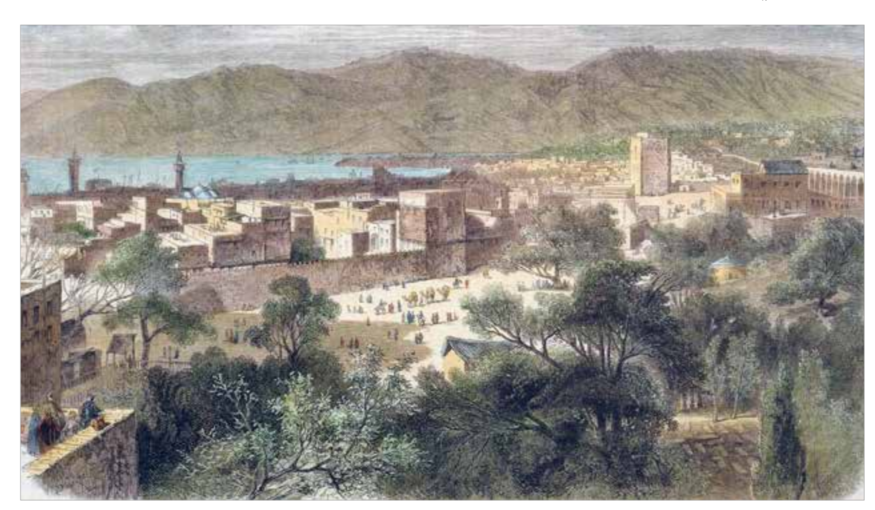
في الجزء السفلي للّوحة وباللون الأَبيض يبدو الجزء الجنوبي من سور بيروت، وفي منتصفه باب الدركه ومحلة الدركه. وفي الجزء الأيمن من اللوحة تبدو منطقة رأس النبع وفي طرفها الشمالي محلة الدحداح التي فيها برج دندن وبرج دعبول، وفي الجزء السفلي تبدو شواهد قبور مقبرة الباشورة.

السُور

كان يحيط بيروتَ القديمة (كمعظم مدن الشرق) سور منيع لحمايتها من هجمات الأعداء. رجّح المؤرخون وعلماء الآثار بناءَه زمنَ الكنعانيين والحثّيين. وورد أوّل ذكر له في رسائل تل العمارنة الأثريّة عبر طلب تقدّم به حاكم بيروت فترتئذٍ من فرعون مصر السماح له بتحصين المدينة بسور وحصون. وتعاقب الغزاة على بيروت واختلفت الخطط العسكرية حول السور: البعض اهتمّ ببنيانه وتحصينه كالعرب والصليبيين والمماليك، ومال البعض الآخر إلى الاستغناء عنه كالرومان والبيزنطينيين والأيّوبيّين. لكن التاريخ يسجّل لأحمد البوشناقي (المشهور بأحمد باشا الجزّار) أمره بالبنيان الأشهر لسور بيروت في الربع الأخير من القرن الثامن عشر.

عُرفت بيروت قديمًا بالمدينة المربّعة، وأحاطها السور من جهاتها الشرقيّة والجنوبيّة والغربيّة فيما كان البحر حدّها الشمالي. ولسورها أربعة أبواب: الدركه، السراي (المصلّى)، الدباغة، السنطيّة، أضيفت إليها لاحقًا ثلاثة أبواب: يعقوب، إدريس، أبو النصر، وأضيف باب السلسلة من الناحية البحريّة لكنه غير متّصل بالسور بل ببرج السلسلة.

هُدم السور نهائيًّا عام ١٨٤٠، وسُمح للسكان بالتمدّد خارج بيروت المربّعة فلم يبقَ من سورها إلّا بضع قطع متناثرةٍ تلاصقت مع العمارة وضاعت وسط الانتشار العمراني أواخر القَرن التاسع عشر. لكنّها تركت أسماءها مكانها، كساحة «عَ السُور» (رياض الصلح)، وباب الدركه، وباب إدريس، ثمّ عادت فظهرت أوائل القرن العشرين مع التخطيط الحديث للمدينة، وشق طرقات جديدة باشرت بها بلديّة بيروت إبان حكم العثمانيّين، وأكملته إبان سلطة الانتداب الفرنسي، ووثّق مصوّرون فترتئذ هذه الأماكن، كأبواب الدركه ويعقوب والسراي، وبدت جوانب من السور في محلّتي الدبّاغة والسراي. وكان السور ذا عدّة أشكال بحسب تخطيطات بنائه، لكن الثابتَ ارتفاعُه حتى خمسة أمتار، يبدأ بأربعة أمتار عند قاعدته لينتهي إلى نحو الثلاثة عند قمّته. وفي الإحداثيات المعاصرة كان السور يبدأ من جانب نفق الإسكُوَى في ساحة رياض الصلح، ويتّجه شرقًا ملاصقًا المباني باتجاه كاتدرائيّة مار جرجس المارونية، لينعطف بينها وبين مسجد خاتم الأنبياء محمّد الأمين منحدرًا شمالاً مارًا في الباحة الأثرية بمحاذاة ضريح الرئيس الشهيد رفيق الحريري، حتى يصل إلى الجانب الغربي من مبنى جريدة «النهار»، وينحدر نحو البحر مع انعطافة صغيرة عند التل الأثري حيث كانت القلعة. وكانت الجهة الغربية تمتد من نفَق الإسكُوى مرورًا بالشارع أسفل السراي الكبير، فالجدار الشرقي للكنيسة الكبوشيّة (لم تكن داخل السور) ثم ينحدر باتّجاه الحدود الغربيّة لأسواق بيروت، مارًّا بشارع البطريرك الحويّك، فجامع المجيديّة، وينتهي عند البحر.



سور بيروت في لوحة للفرنسي بلانشار



الأبواب

كان لسور بيروت عدد من الأبواب اختلف المؤرخون في تعدادها بين خمسة وسبعة. وعن المؤرخ عبد اللطيف فاخوري: «ينبغي التنويه بما عُرفت به بيروت لدى السّياح الأجانب بأنها «المدينة المربّعة»، ما يبرّر رأينا أن الأبواب القديمة لم تكن تزيد عن أربعة، فحماية المدينة والدفاع عنها يفرضان التقليل من المنافذ/الأبواب ... والأبواب القديمة كانت شرقًا باب السراي، الباب الموصل إلى سراي الحاكم مباشرة، قِبلةً باب الدركه عند رأس شارع المعرض، غربًا باب السنطية باتّجاه مقبرة السنطية ومنطقة رأس بيروت. والباب الرابع باب الدباغة عند الشمال الشرقي لجهة المرفأ. يؤيد هذا الرأي أنَّ دومنيل دو بويسون لم يشر إلى أي استحكامات خاصة إلا لأبواب السراي والدركه والدباغة، أما أبواب يعقوب وأبو النصر وإدريس فلا تتمتع بأي تحصينات دفاعية، ما يعني أنها حديثة العهد».

وفي رسم توضيحي، اعتمادًا على خريطة مسح لبيروت داخل سورها وضعتْه البحرية الملكية البريطانية سنة ١٨٣١، إشارة إلى سبعة أبواب: باب السلسلة وباب الدباغة وباب السراي وباب الدركه وباب يعقوب وباب ادريس وباب أبو النصر. وتكرر هذا العدد في كتابات أكثر المصنفات الأجنبية والمحلية.

كانت الأبواب تُقفل عند مغيب الشمس فيُنارُ المصباح المعلّق إلى جانب كل واحد منها. ثم تُعطى مفاتيح الأبواب إلى متسلّم بيروت يحفظها عنده حتى الصباح. وكانت القوافل الواصلة ليلاً إلى بيروت تبقى خارج المدينة حتى يُفتح الباب في الصباح. وحده باب الدركه يبقى مفتوحًا حتى الواحدة بعد منتصف الليل.

الأبراج

في كتابه Fifty Three Years in Syria نقل المبشّر الأمريكي Henry Harris Jessup (المتوفى سنة ١٩١٠، وكان أحد مؤسّسي الكلية السورية البروتستانتية — الجامعة الأميركية لاحقًا) ما كتبه مواطنه المبشر Fisk في وصف سور بيروت سنة ١٨٢٣: «كان محيطًا بالبلدة يرتفع صوب البحر، فيه أبراج وتحصينات لصدّ القراصنة من اليونان. وأقيم برج في ظاهر السور على مسافة قصيرة من الباب الجنوبي الشرقي لصدّ أي اقتحام برّيٍّ للبلدة، وكان هذا البرج متينًا عاليًا يبلغ ارتفاعه ٨٠ قدمًا». وعن رحالة روسي زار بيروت سنة ١٨٤٤ أنْ كان لسور المدينة المتهدّم عشرة أبراج أطلقت عليها أسماء الحصون والقلاع المشهورة.



زيتية للفرنسي جول كوانييه مؤرخة ١٨٤٤ يبدو فيها بعض الأبراج البيروتية من محفوظات متحف المتروبوليتان في نيو يورك

كان الرحّالة الأجانب يتحدثون عن بعض أبراج بيروت العسكرية، في استعمالهم كلمة «برج»، مع أن في بيروت أبراجًا مدنية ارتبطت أسماؤها بأسماء العائلات البيروتية: برج دندن وبرج سعادة وبرج العيتاني وغيرها. والفرق بينها وبين الأبراج العسكرية أنها كانت أقرب إلى بيوت ذات عدة طبقات، بُنِيَ أكثرها في مزارع وبساتين خارج السور على نظام العقد، واستعملت منازل صيفية هربًا من حر المدينة، فيتركها أصحابها عائدين داخل السور عند الشعور بأي خطر.

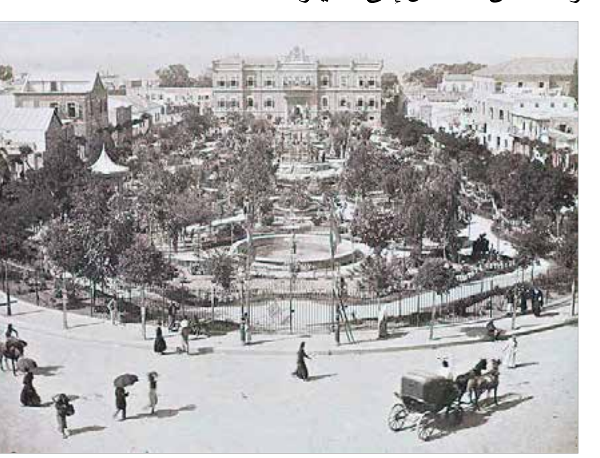


كانت الأبراج العسكرية، داخل السور أو خارجه، محصّنة تتواصل مع أبراج باقي الأقاليم بإشعال النيران في أعلاها ليلاً، أو بإطلاق أعمدة الدخان نهارًا. أشهرها برج الكشاف والبرج الكبير وبرج السلسلة. وكان في أغلبها عدد من المدافع وأكياس من القنابل المخروطية والعادية وبراميل بارود وبريمات ومغاليق حربية. أما الأبراج المدنية فكانت في معظمها بيوتًا من طبقتين وفق نظام العقد في البساتين والمزارع وسُمّيت بأسماء العائلات البيروتية التي بَنَتْها أَو استملكتْها.

الخانات

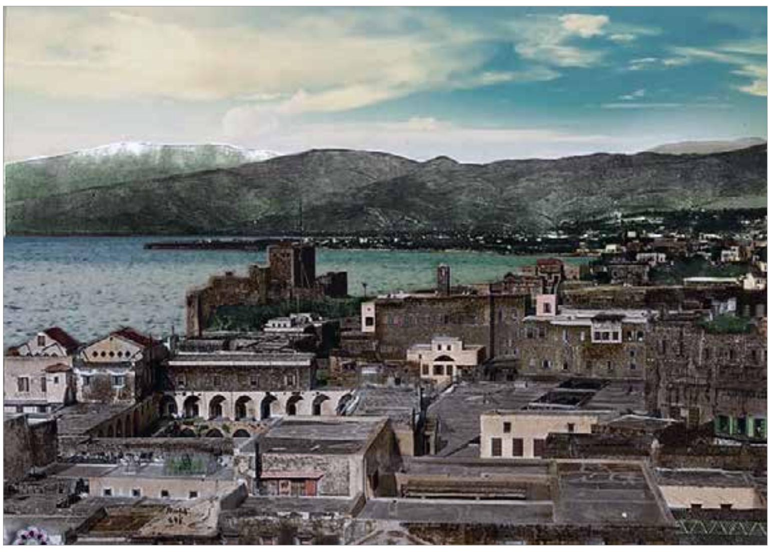
استعمل الفرس والمغول والأتراك والمماليك كلمة «خان» للدلالة على الأمبراطور أو السلطان، فتضاف إلى اسم الحاكم. ثم أصبحت الكلمة تعني مجموعة حوانيت، وأطلقت في العهدين المملوكي والعثماني على المركز التجاري أو السوق، ثم على الفنادق، وشاعت اللفظة بين العرب.

الخان لفظة فارسية تعني المنزل أو مكان مبيت المسافرين وقوافل التجار، ويمكن اعتبارها فنادق العصور القديمة. عرفت بيروت قديمًا خانات تركّز معظمها في منطقة المرفأ والأسواق القديمة وساحة البرج، أكثرها تمّ تشييده خلال فترة حكم الدولة العثمانية لوقوعها على الطرق التجارية وكونها محطة لقوافل الحج الوافدة من الشمال إلى الديار المقدسة في فلسطين أو الحجاز. كثُر إنشاء الخانات في بيروت قرب مرفإها لإقامة التجار الوافدين إليها بحرًا فانتشرت في أنحاء المدينة داخل وخارج سورها وقرب مداخلها عند أبوابها. وكانت وظيفة الخان في المدينة استقبال التجار بشكلٍ عام، من باعة الجُملة ومُروّجي البضائع ومراسلي المستوردين والوسطاء. وفي هذا المكان كان يتمّ البيع والشّراء، كأنّ المكان لم يعد لإيواء المُسافرين بل لاستقبالهم ريثما يُتمُّون تجارتهم.



ساحة البرج في ثمانينيات القرن التاسع عشر بعدسة الفرنسي شارلييه - مجموعة السيد بدر الحاج

كان في بيروت قديمًا نحو ٣٠ خانًا اشتهر أغلبها بأسماء مالكيها (خان طاسو وخان رمضان وخان أنطون بك...) أو بأسماء نوع البضائع التي تخزَّن أو تباع فيها (خان البارود وخان المزيكة وخان الصاغة...)، أو باسم المحلة التي تقع فيها (مثل خان الدباغة وخان الصيفي،...). وفي أواخر القرن التاسع عشر كانت الوكالات التجارية بِاسم عائلات امتهنت التجارة (بسترس وسرسق وأياس وثابت وشقال والأحدب ودمشقية ومنيمنة وغيرها) تتمركز كلّها وتنمو حول الخانات الكبرى في المدينة. وهدمت تلك الخانات البيروتية بعد الحرب العالمية الأولى، أو أقيمت فوقها مبانٍ، وخاصة دور سينما في ساحة البرج، ولم يبق لها أي أثر اليوم.



خان الملاحة في منطقة المرفأ بعدسة الفرنسي بونفيس، تلوين المهندس مازن المر لجمعية تراثنا بيروت

الساحات

لأن بيروت القديمة مدينة صغيرة محاطة بسورٍ زمنَ رسمِ اللوحة، لم تكن فيها مساحات لساحات عامة سوى اثنتين صغيرتين: أُولى بجوار سراي الأمير منصور عساف، وأخرى صغيرة غربي الجامع العمري عُرفَت بساحة الشهداء نسبة لشهداء الحروب الصليبية وهي غير ساحة البرج أو ساحة الشهداء منذ ١٩١٦ حتى اليوم. أما الساحات الأكثر اتّساعًا فكانت خارج أسوار المدينة، وأشهرها: ساحة المصلّى وساحة البرج وساحة السور. فماذا عنها؟

١. **ساحة المصلّى:** أو ساحة باب السراي، يحدّها من الغرب سراي الحكومة القديمة ومن الشرق الطريق المؤدية إلى محلة المدور، ومن الجنوب خان الوحوش والقسم الشمالي من ساحة البرج.

٢. **ساحة البرج**: نسبة إلى برج كبير قديم كان إلى شمالها. وينسب كثيرون التسمية إلى برج الكشاف الظاهر في اللوحة، وهذا خطأ يجب تصحيحه. سُمّيَت لاحقًا ساحة المدافع نسبة إلى المدافع الروسية التي تمّ تسليمها إلى الأسطول الروسي سنة ١٧٧٣ أثناء حملة إخراج الجزار من بيروت وقامت بقصف سور المدينة الشرقي. وعن بعض الباحثين أن سبب التسمية يعود إلى المدافع الفرنسية التي أُنزلت فيها سنة ١٨٦٠ خلال أحداث تلك السنة. لكن الاحتمال الأول أكثر توثيقًا. ولاحقًا أُطلقت على الساحة وحديقتها عدة أسماء: ساحة البرج وساحة الحميدية وساحة الحرية وساحة الاتحاد وأخيرًا ساحة الشهداء ولا تزال تحمل هذا الإسم إلى يومنا هذا.

٣. **ساحة السور** (ساحة عَ السُور): بين بابَي الدركه ويعقوب وسميت هكذا لملاصقتها سور المدينة مباشرة. وأيام رسم هذه اللوحة كانت فسحة متسعة يقصدها الناس للتنزه واحتفالات الأعياد، وبقيت هكذا حتى ١٨٦٠ حيث مدت في جانبها الشمالي طريق العجلات وعلى جانبها الجنوبي المخازن والدكاكين ثم طرأت عليها تغييرات.

الأشجار والزهور

يبدو من قراءة اللوحة أن الفنانِ عالم نبات: من شجرة الجمّيز وشجيرات الصبّار إلى اليسار، وصولاً إلى أشجار الزنزلخت (أزدرخت) وأشجار السرو الجميلة، وما كان رسام آخر يوضح تفاصيل هذه الأشجار والشجيرات والأزهار كما فعل ماري. كان أهل بيروت على صلة وثيقة بأشجارهم وأزهارهم ومنتجاتهم الزراعية. وحين رسم ماري هذه التحفة الفنية، كانت مناطق المدينة خارج الجدار مزارع: مزرعة الأشرفية ومزرعة المصيطبة ومزرعة رأس بيروت ومزرعة الصيفي، وغيرها. تم تقسيم تلك المناطق حدائقَ وبساتين وكرومًا وجلولاً وبساتين. وكانت هذه تحوي أنواعًا مختلفة من أشجار الفاكهة كالبرتقال والرمّان والتّوت والأكي دنيا (أسكيديا). وزينَت شجيرات الزهور الجدران الخارجية للمنازل، وأقيمت حول النوافير (البِرَك) وسْط الفناء، وخاصة الياسمين والبنفسج والنرجس والزنبق والورد.


أشجار المقسيس وشجيرات الصبار في منطقة جرن الدب (شارع الحمراء لاحقًا) نهاية القرن التاسع عشر

سمّى البيارتة أحياءهم وحاراتهم نسبة إلى الشجر، فعُرِفَ كل حي بهذا الاسم: أحياء الجميزة والزيتونة والخروبة والتينة والصنوبرة. وبعض هذه الأسماء لا تزال حتى اليوم.